"الثقافة تتجلى في الأماكن":
تأملات في العولمة واستراتيجيات التبعية للتوطين"

من الجغرافيا السياسية 20 (2001): 139-174

أرتورو إسكوبار

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة المحرر

في كتاب "الثقافة تتجلى في الأماكن" ، نرى إشارةً واعيةً إلى عنوان كتاب كيث باسو، "الحكمة تتجلى في الأماكن" . يُركز كلٌّ من إسكوبار وباسو بحثهما الميداني على أقلية عرقية ؛ وفي حالة أرتورو إسكوبار ، الكولومبيون السود المقيمون على ساحل المحيط الهادئ في البلاد . وقد بحث إسكوبار لسنواتٍ في التعبئة السياسية لهذه المجموعة في إطار جهودها للحفاظ على بيئتها الغنية بالتنوع البيولوجي في مواجهة الضغوط العالمية لاستخراج الموارد الطبيعية من هذه المنطقة . في مقال "الثقافة تتجلى في الأماكن" ، يُشير إسكوبار إلى أهمية التفاعل بين هذه المجموعة على نطاق واسع مع الحكومة الكولومبية ، والمنظمات غير الحكومية ، والأكاديميين ، وغيرهم ممن يخوضون صراعات مماثلة قائمة على المكان . كما يُشير إلى التفاعل الأوسع بين العناصر البشرية وغير البشرية في النظام البيئي ، مُشكلةً بذلك مسارات حياة مُتنوعة . تُشكل هذه التفاعلات بين النطاقات ، وبين الطبيعة والثقافة ، ما يُطلق عليه إسكوبار "الإقليم-الإقليم" .

يتوافق هذا الاختيار مع غيره من الاختيارات في الجزء الخامس من حيث اهتمامه بالمكان في مواجهة قوى العولمة . ومع ذلك ، يُقدم إسكوبار نشاطه القائم على المكان في دراسة السكان على أنه تقدمي ، وليس تفاعليًا . وقد واجه العديد من الباحثين من مختلف التخصصات مسألة الحفاظ على التميز القائم على المكان في مواجهة العولمة . ينظر على سبيل المثال كتاب أرجون أبادوراي "الحداثة الشاملة : الأبعاد الثقافية للعولمة" (1996) وكتاب ديفيد هارفي "مساحات الرأسمالية العالمية : نظرية في التطور الجغرافي غير المتكافئ" (2006) .

قدم إدوارد كيسي ، في كتابه "مصير المكان : تاريخ فلسفي" (1997) ، رؤيةً بعيدة المدى للمكان ، إذ قلل الفلاسفة من قيمته إلى حد كبير مقارنةً بالفضاء عبر التاريخ . ومثل كيسي ، يدافع إسكوبار عن المكان . ويهتم عدد متزايد من الباحثين بالجوانب الثقافية للتنمية الاقتصادية ، والموارد الطبيعية ، والتنظيم السياسي الشعبي . ويُعد كتاب آنا لوفينهاوبت تسينغ "الاحتكاك : إثنوغرافيا للاتصال العالمي" (2004) مثالاً جيدًا على هذا النوع من العمل . وقد كان للجغرافيين دورٌ فاعلٌ بشكل خاص في الأبعاد الثقافية للبيئة السياسية ؛ ينظر كتاب رودريك نيومان "البرية المهيبة : صراعات على سبل العيش والحفاظ على الطبيعة في أفريقيا" (2002) ، وكتاب كارل زيمرير وتوماس باسيت (المحرران) ، "الجغرافيا السياسية : نهج تكاملي للجغرافيا ودراسات التنمية البيئية" (2003)، وكتاب ريتشارد بيت ومايكل واتس (المحرران) ، "بيئات التحرير "(1996) .

أرتورو إسكوبار مواطن كولومبي ، وهو أستاذ في الأنثروبولوجيا بجامعة نورث كارولينا ، تشابل هيل . تشمل خلفيته الأكاديمية أيضًا التدريب في الهندسة والكيمياء الحيوية والتغذية الدولية وعلوم الأغذية . ولإسكوبار اهتمامٌ طويل الأمد بالمجتمع الأسود على ساحل المحيط الهادئ في كولومبيا . والعلاقة بين التعبئة الاجتماعية والتنمية والبيئة . من بين المنشورات الأخرى المختارة : مواجهة التنمية : بناء العالم الثالث وتفكيكه (1994) ، وثقافات السياسة / سياسات الثقافة (حرره بالاشتراك مع سونيا ألفاريز وإيفيلينا داجنينو، 1998)

، و"ما وراء العالم الثالث : العولمة الإمبريالية ، والاستعمار العالمي ، والحركات الاجتماعية المناهضة للعولمة" ، في مجلة فصلية العالم الثالث 25، 1 (2004): 207-230.

مقدمة : الثقافة وتهميش المكان

أُثيرت مسألة "المكان" حديثًا في السنوات الأخيرة من وجهات نظر متعددة - بدءًا من علاقته بالفهم الأساسي للوجود والمعرفة ، وصولًا إلى مصيره في ظل العولمة ، ومدى استمراره في كونه عونًا أو عائقًا للتفكير في الثقافة والاقتصاد . وهذا التساؤل ، بالطبع ، ليس مصادفة ؛ فبالنسبة للبعض ، أصبح انعدام المكان سمة أساسية للوضع الحديث ، بل سمة حادة ومؤلمة للغاية في كثير من الحالات ، مثل حالات المنفيين واللاجئين . وسواء احتُفي بها أو استُهجنت ، يبدو أن الشعور بالفوقية قد استقر . ويبدو أن هذا ينطبق على المناقشات الفلسفية ، حيث تجاهل معظم المفكرين المكان ؛ ونظريات العولمة ، التي أدت إلى محو خطابي كبير للمكان ؛ أو نقاشات في الأنثروبولوجيا ، شهدت تساؤلات جذرية حول المكان وتكوينه .

ومع ذلك ، تبقى الحقيقة أن المكان ما يزال مهمًا في حياة كثير من الناس ، وربما معظمهم ، إذا فهمنا المكان على أنه تجربة موقع معين مع قدر من الثبات (وإن كان غير مستقر) ، وإحساس بالحدود (وإن كانت قابلة للاختراق) ، وارتباط بالحياة اليومية ، حتى لو كانت هويته مبنية ، ومتجاوزة بالقوة ، وغير ثابتة . هناك "تموضع" ذو أهمية أكبر مما نريد الاعتراف به... لا شك أن نقد المكان في الأنثروبولوجيا ، والجغرافيا ، والاتصالات ، والدراسات الثقافية في الآونة الأخيرة كان مثمرًا ومهمًا ، وما يزال كذلك . لقد جعلتنا المفاهيم والاستعارات المكانية الجديدة للتنقل - مثل إزالة التوطين ، والنزوح ، والشتات ، والهجرة ، والسفر، وعبور الحدود ، والترحال ، وما إلى ذلك - ندرك حقيقة أن الديناميكيات الرئيسية للثقافة والاقتصاد قد تغيرت بشكل كبير بسبب التغيرات العالمية غير المسبوقة العمليات .

ومع ذلك ، كان هناك نوع من عدم التماثل في هذه النقاشات... ويتجلى هذا التباين جليًا في خطابات العولمة ، حيث غالبًا ما يُساوى العالمي بالفضاء ورأس المال والتاريخ والفاعلية ، والمحلي بالمكان والعمل والتقاليد . لقد اختفى المكان عن الأنظار في "هوس العولمة" في السنوات الأخيرة ، ولهذا المحو للمكان عواقب وخيمة على فهمنا للثقافة والمعرفة والطبيعة والاقتصاد . ولعل الوقت قد حان لعكس بعض هذا التباين من خلال التركيز مجددًا - ومن المنظور الذي توفره انتقادات المكان نفسه - على **استمرار حيوية المكان وصنعه للثقافة والطبيعة والاقتصاد** . إن استعادة قدرٍ من التناسق ، كما سنرى ، لا يستلزم محو المكان كمجالٍ للمقاومة والاختلاف ، إذ إن كلاً من المكان والمكان أساسيان في هذا الصدد ، كما هو الحال في خلق أشكال الهيمنة . إلا أنه يعني ، مع ذلك ، التشكيك في الامتياز الممنوح للمكان في تحليلات ديناميكيات الثقافة والسلطة والاقتصاد

وهذه ، في الواقع ، حاجةٌ ملحةٌ بشكل متزايد لدى العاملين في تقاطع البيئة والثقافة والتنمية ، على الرغم من أن تجربة التنمية قد عنت لمعظم الناس فصلًا للحياة المحلية عن مكانٍ أعمق من أي وقت مضى . لا يواجه الباحثون والناشطون في الدراسات البيئية حركاتٍ اجتماعيةً تُحافظ عادةً على مرجعيةٍ قويةٍ للمكان والإقليم فحسب ، بل يواجهون أيضًا إدراكًا متزايدًا بأن أي مسار عملٍ بديل يجب أن يأخذ في الحسبان نماذجَ الطبيعة والثقافة والسياسة القائمة على المكان . في حين أنه من الواضح أن الاقتصادات والثقافة "المحلية" ليستا خارج نطاق رأس المال والحداثة ، إلا أنه من الضروري أيضًا الاعتراف مجددًا بأن الأولى ليست من إنتاج الأخيرة حصريًا ؛ فهذه الخصوصية المكانية ، كما سنرى ، تُمكّن من قراءة مختلفة للثقافة والاقتصاد ، والرأسمالية والحداثة . يُعدّ المكان ذا أهمية مماثلة لتجديد نقد المركزية الأوروبية في تصور أقاليم العالم ، ودراسات المناطق ، والتنوع الثقافي .

كان تهميش المكان في النظرية الاجتماعية الأوروبية في القرنين التاسع عشر والعشرين ضارًا بشكل خاص بتلك التشكيلات الاجتماعية التي استمرت أنماط الوعي والممارسات القائمة على المكان في لعب دور مهم فيها . ويشمل ذلك العديد من المجتمعات المعاصرة ، ربما باستثناء تلك الأكثر تعرضًا لتأثير الاقتصاد والثقافة والفكر الحديث ، الذي يُزيل الطابع المحلي ، ويُفككه ، ويُعمّمه . وهكذا ، تبدو إعادة تأكيد المكان ساحةً مهمة لإعادة التفكير في أشكال التحليل المركزية الأوروبية وإعادة صياغتها .

الثقافة تتجلى في الأمكنة :

تجسيدات المكان في الأدبيات الأنثروبولوجية الحديثة

أبرز ما أشار إليه الفينومينولوجيا هو تجاهل المكان في النظرية الغربية والعلوم الاجتماعية . بالنسبة للفيلسوف إدوارد كيسي ، كان هذا التجاهل متأصلاً وطويل الأمد . منذ أفلاطون ، كرّست الفلسفة الغربية - غالبًا بمساعدة اللاهوت والفيزياء - المكان كونه المطلق ، غير المحدود ، والكونيّ ، بينما حصرته في نطاق الخاص ، والمحدود ، والمحلي ، والمقيد . افترض فلاسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر، من ديكارت إلى لايبنتز، أن الأمكنة ليست سوى تقسيمات فرعية عابرة لفضاء كوني ومتجانس . ولكي يحدث ذلك ، كان لا بد من فصل المكان عن الأجسام التي تشغله وعن الخصوصيات التي أعارتها هذه الأجسام للأماكن التي تسكنها .

رحّبت المعرفة العلمية بمفهوم الفراغ هذا ، حتى وإن كان فراغًا ذا امتداد وبنية ، مما مكّن من تحقيق المشروع الديكارتي للرياضيات الشاملة ورياضيات الطبيعة . ورغم هيمنة المكان... لطالما كان هناك تيار خفي من الاهتمام بالمكان وتنظيره ، وهو ما ظلّ غير مدروس . وقد امتدّ هذا الاهتمام بالمكان إلى تخصصات مثل العمارة ، والآثار ، والأنثروبولوجيا ، والجغرافيا ، وعلم البيئة التاريخي . وتشترك العديد من هذه التوجهات في مفهوم المكان المناهض للجوهر، والاهتمام بإيجاد مكان في العمل ، مكان يُبنى ويُتخيل ويُناضل من أجله .

ويمكن القول إن هناك اليوم فلسفةً وسياسةً ناشئتين للمكان ، وإن كان من الواضح أنها ما تزال قيد الإنشاء . إن تجاهل المكان في العلوم الاجتماعية والإنسانية هو الأكثر حيرة ، إذ كما يجادل كيسي بحماس ، فإن انغماسنا الحتمي في المكان ، وليس مطلقية المكان ، هو الذي له الأولوية الوجودية في نشوء الحياة والواقع . ويتجلى ذلك بالتأكيد في روايات وممارسات معظم الثقافات ، ويتردد صداه في التأكيد الظاهراتي على أنه نظرًا لأسبقية الإدراك المتجسد ، فإننا نجد أنفسنا دائمًا في أماكن . نحن ، باختصار، كائنات مكانية... المكان ، بطبيعة الحال ، يتكون من هياكل اجتماعية وممارسات ثقافية راسخة . فالإحساس والحركة ليسا أمرين سابقين للمجتمع ؛ فالجسد المعيش هو نتيجة عمليات ثقافية واجتماعية اعتيادية .

لذا ، من الضروري أن "نعود إلى مكاننا" وأن نعكس حالة عدم التمكين طويلة الأمد للمكان في كل من النظرية الحديثة والحياة الاجتماعية . هذا يعني إدراك **أن المكان والجسد والبيئة تتكامل مع بعضها البعض** ؛ وأن الأماكن تجمع الأشياء والأفكار والذكريات في تكوينات محددة ؛ وأن المكان ، وهو حدثٌ أكثر منه شيئًا ، يتميز بالانفتاح بدلًا من هوية ذاتية موحدة . من منظور أنثروبولوجي ، من المهم تسليط الضوء على موضع جميع الممارسات الثقافية ، والذي ينبع من حقيقة أن الثقافة تُحمل إلى الأماكن بواسطة الأجساد - فالأجساد تُزرع وتُمارس ، على العكس من ذلك ، ممارسات ثقافية... وهذا يعني أيضًا أن الناس ليسوا "محليين" فحسب ؛ فنحن جميعًا مرتبطون ارتباطًا وثيقًا بالأماكن المحلية وخارج المحلية من خلال ما يمكن تسميته بالشبكات - والتي تُمثل حلقة الكولا وشبكات الإنترنت تباينات متناقضة من حيث الطرق التي تربط بها الأشخاص والأماكن . تترابط الأماكن لتشكل أقاليم ، مما يوحي بأن مسامية الحدود أساسية للمكان ، كما هي أساسية

للبناءات والتبادل المحلي . وهكذا ، تُحدد المحلية بالتفاعل بين الموقع والمكان والمنطقة ؛ وبمسامية الحدود ؛ وبدور الجسد المعيش بين التثاقف والتوطين... وفي مقابل هذه الرؤية ، تتعارض الهجرة والحروب وتقنيات المعلومات والاتصالات الجديدة (NICTs) والسرعة ، وبالطبع ، تجريدات المكان وجزء كبير من الفكر الغربي

سأجادل بأن بعض الحركات الاجتماعية تتولى زمام المبادرة في "العودة إلى المكان الصحيح" الذي يدعونا إليه كيسي . ليس الحركات الاجتماعية فقط ، بالطبع ، لأن هناك مصادر متعددة في هذا المسعى ، بما في ذلك ، من بين أمور أخرى ، سياسات الجسد النسوية ، وعلم الأحياء الظاهراتي ، والشكل الجديد للسكن في العمارة ، والتفكير البديل في الأرض والمجتمع ، وما شابه ذلك . في تعليقه على التحيز الاقتصادي ضد الصغار وتدنيس الطبيعة والمجتمعات الأخلاقية في الولايات المتحدة ، يُبرز ويندل بيري ، الشاعر المزارع ، على سبيل المثال ، سبل التمسك بالأرض ؛ هذا يدفعه إلى تصور الإمكانية التاريخية لإنشاء "حزب المجتمع المحلي" ، أي أن تصبح المجتمعات المحلية أكثر وعيًا بذاتها في معارضتها لعالم ما بعد الزراعة ، وما بعد الطبيعة ، وما بعد الإنسان الذي يراه يستقر فيه بخبث . لهذا الحزب التزام مزدوج : **الحفاظ على التنوع البيئي وسلامته ، وتجديد الاقتصادات والمجتمعات المحلية** . وكما سنرى ، فإن هذا الهدف المزدوج المتمثل في تحويل علم البيئة والاقتصاد يمكن أن يوفر واجهة قوية لتجديد النظرية والممارسة القائمة على المكان .

الحركات الاجتماعية والاستراتيجيات الفرعية للتوطين

تُعد منطقة المحيط الهادئ في كولومبيا منطقة غابات مطيرة شاسعة ، يبلغ طولها حوالي 900 كيلومتر وعرضها 50-180 كيلومترًا ، وتمتد من بنما والإكوادور، وبين أقصى سلسلة جبال الأنديز غربًا والمحيط الهادئ . تُعرف بأنها إحدى "المناطق الساخنة" للتنوع البيولوجي في العالم . يُشكل الكولومبيون من أصل أفريقي ، المنحدرون من العبيد الذين جُلبوا بدايةً من القرن السادس عشر لاستخراج الذهب ، حوالي 90% من السكان ، بينما يُشكل السكان الأصليون من مختلف المجموعات العرقية حوالي 5% من سكان المنطقة الذين يقارب عددهم مليون نسمة . ما يزال حوالي 60% من السكان يعيشون في مستوطنات ريفية على طول الأنهار العديدة التي تتدفق في الجزء الجنوبي من جبال الأنديز نحو المحيط .

على الرغم من أن المنطقة لم تكن معزولة تمامًا ، إلا أن عاملين أحدثا تغييرات في مستجمعات المياه فيها في السنوات الأخيرة : الانفتاح النيوليبرالي الجذري للبلاد على الاقتصاد العالمي الذي تبنته الحكومة بعد عام 1990؛ ومنح... الحقوق الإقليمية والثقافية الجماعية للمجتمعات السوداء عام ١٩٩٣ (ما يُسمى بالقانون ٧٠) ، عقب تطبيق دستور وطني جديد عام ١٩٩١. في سياق هذا الوضع ، يجب وضع التغيرات الثلاثة التي يتناولها هذا التقرير في الحسبان . أولًا، تسارع وتيرة الأنشطة الاستخراجية الرأسمالية ، مثل التوسع السريع لمزارع النخيل الأفريقي وتربية الروبيان الصناعي في الجزء الجنوبي من المنطقة . ثانيًا، تزايد القلق بشأن تدمير التنوع البيولوجي ، مما أدى إلى تنفيذ مشروع مبتكر للحفاظ عليه ، مع كون الحركات الاجتماعية في المنطقة أحد المحاورين الرئيسيين للمشروع . ثالثًا، ظهور حركات عرقية مهمة ، ولا سيما الحركة الاجتماعية للمجتمعات السوداء .

كيف يمكن تحليل إنتاج هذه المنطقة الفريدة من "الغابات المطيرة" من حيث المكان ؟ بشكل عام ، تُعرف المنطقة باسم "باسيفيكو بيوجغرافيكو"، من خلال عمليات تشمل العوالم البشرية والفيزيائية الحيوية وغير البشرية والآلية ، على نطاقات متعددة ، من الميكروبيولوجي إلى العالمي . ويمكن تلخيص هذه العمليات بشكل تخطيطي على النحو الاتي :

1) العمليات التاريخية للتكوين الجيولوجي والبيولوجي . يقدم الجيولوجيون وعلماء الحفريات نظرة إلى المنطقة من منظور الزمن الجيولوجي والتطوري ، بما يُراعي خصوصيتها ، وخاصةً مستوياتها العالية غير العادية من التوطن والتنوع البيولوجي .

2) العمليات التاريخية التي تشكلت من الممارسات اليومية للمجتمعات المحلية من السود والسكان الأصليين والمستيزو. فمن خلال ممارساتهم اليومية الشاقة في الوجود والمعرفة والفعل ، دأبت هذه المجتمعات على بناء عوالمها الاجتماعية والطبيعية على مدى قرون ، حتى في خضم قوى أخرى .

3) العمليات التاريخية لتراكم رأس المال على جميع المقاييس ، من المحلي إلى العالمي . رأس المال بلا شك أحد أقوى القوى التي تُشكّل هذه المنطقة ، ومعظم مناطق الغابات المطيرة في العالم . ومع ذلك ، لا يمكن تفسير بناء المحيط الهادئ كمكان من منظور رأس المال فقط . في الواقع ، يمكن افتراض وجود أشكال من اللارأسمالية ، وهي في الواقع تُنشأ اليوم انطلاقًا من ديناميكيات الممارسات الثقافية والبيئية القائمة على المكان ، حتى في إطار التعامل الحاسم مع رأس المال والدولة .

4) العمليات التاريخية لدمج المنطقة في الدولة ، لا سيما من خلال تمثيلات واستراتيجيات التنمية . اكتسبت هذه العمليات أهمية كبيرة في العقود القليلة الماضية ، عندما سعت الحكومة أخيرًا إلى دمج المنطقة بالكامل في جهازها التنموي . في أوائل الثمانينيات ، تم تمثيل المحيط الهادئ الكولومبي لأول مرة كمنطقة "قابلة للتطوير" من خلال خطابات الدولة . يشكل رأس المال والتنمية استراتيجية ذات شقين لإضفاء الطابع الإقليمي على المحيط الهادئ كفضاء حديث للفكر والتدخل .

5) الممارسات الثقافية والسياسية للحركات الاجتماعية . بعد التسعينيات ، أصبحت حركات السود والسكان الأصليين منافسًا مهمًا لتمثيل وبناء المحيط الهادئ كمكان ومنطقة-إقليم . لقد أطلقت هذه الحركات سياسات ثقافية تعمل بشكل رئيسي من خلال عملية إضفاء طابع عرقي على الهوية ، بالتزامن مع استراتيجيات التنمية البيئية والبديلة .

6) خطابات وممارسات العلوم التقنية على جميع المستويات ، من المحلي إلى العالمي ، لا سيما في مجالات الحفاظ على التنوع البيولوجي والاستدامة . أصبح "التنوع البيولوجي" خطابًا قويًا ، وأنشأ شبكة من المواقع التي تضم مجالات متزايدة من العمل الثقافي والسياسي والبيئي . منذ أوائل التسعينيات ، أصبحت شبكة التنوع البيولوجي عنصرًا مهمًا في الصراع على المحيط الهادئ الكولومبي كمكان وإقليم .

بشكل تخطيطي للغاية ، يمكن تقسيم هذه العمليات إلى **استراتيجيتين شاملتين** . هذه الاستراتيجيات ، وللتأكيد ، ليست محدودة ومنفصلة ، بل متداخلة ومنتجة بشكل مشترك من نواحٍ عديدة :

1- استراتيجيات التوطين العالمي من قِبل رأس المال والدولة والتقنية . ينخرط رأس المال والدولة والتقنية في سياسة الحجم التي تحاول التفاوض على إنتاج المحلية بما يخدم مصالحها . ومع ذلك ، وبقدر ما لا تستند هذه الاستراتيجيات إلى المكان ، فإنها تُحدث حتمًا تأثيرًا لامركزيًا فيما يتعلق بالأماكن المحلية ، على الرغم من جهودها في التواصل مع المحليات . (لن أناقش هنا تلك الاستراتيجيات الإقليمية ذات الصلة القائمة على عنف السلاح والترهيب ، والتي اكتسبت للأسف زخمًا في المنطقة منذ أواخر التسعينيات ، مما تسبب في نزوح جماعي للسكان في عدد من الأماكن) .

2- استراتيجيات التوطين التابعة للمجتمعات ، وخاصة الحركات الاجتماعية . تنقسم هذه الاستراتيجيات إلى نوعين : استراتيجيات قائمة على المكان تعتمد على الارتباط بالإقليم والثقافة ؛ واستراتيجيات عالمية ومحلية من خلال شبكات تُمكّن الحركات الاجتماعية من الانخراط في إنتاج المحلية من خلال تفعيل سياسة النطاق

من القاعدة . تنخرط الحركات الاجتماعية في سياسة النطاق من خلال إشراك شبكات التنوع البيولوجي ، من جهة ، ومن خلال بناء تحالفات مع نضالات أخرى قائمة على المكان .

وقد صاغ ناشطو عملية المجتمعات السوداء (PCN) تدريجيًا إطارًا بيئيًا سياسيًا في تفاعلهم مع المجتمع والدولة والمنظمات غير الحكومية والقطاعات الأكاديمية . ومن أهم مساهمات مشروع الحفاظ على التنوع البيولوجي (PBP) بدء البحث ووضع مفاهيم "أنظمة الإنتاج التقليدية" لمجتمعات النهر . ومن الواضح ، بالنسبة لموظفي PBP ونشطاء PCN على حد سواء ، أن هذه الأنظمة موجهة نحو الاستهلاك المحلي أكثر من السوق والتراكم ؛ لقد عملت هذه الممارسات كأشكال للمقاومة ، حتى وإن ساهمت أيضًا في تهميش المنطقة

ومن الأمور المُسلّم بها عمومًا أيضًا أن الممارسات التقليدية كانت مستدامة إلى الحد الذي مكّنها من إعادة إنتاج البيئات الثقافية والبيوفيزيائية (سانشيز وليال، 1995) . وقد أصبحت هذه الاستدامة موضع تساؤل متزايد بالنسبة لمعظم المجتمعات على مدى العقدين الماضيين على الأقل . وقد قدّم النشطاء ابتكارات مفاهيمية مهمة أخرى في هذا السياق . أولها تعريف "التنوع البيولوجي" بأنه "الإقليم بالإضافة إلى الثقافة" . ويرتبط به ارتباطًا وثيقًا رؤية منطقة الغابات المطيرة في المحيط الهادئ بأكملها على أنها "إقليم-إقليم للمجموعات العرقية" ، أي وحدة بيئية وثقافية تُبنى بشق الأنفس من خلال الممارسات الثقافية والاقتصادية اليومية للمجتمعات . ويُنظر إلى المنطقة / الإقليم أيضًا من حيث "ممرات الحياة" ، وهي نقاط اتصال حقيقية بين أشكال الاستخدام الاجتماعية والثقافية والبيئة الطبيعية .

هناك ، على سبيل المثال ، ممرات حيوية مرتبطة بالنظم البيئية لأشجار المانغروف ؛ وسفوح الجبال ؛ والجزء الأوسط من الأنهار، الممتدة نحو داخل الغابة ؛ وممرات أخرى تُنشأ من أنشطة محددة ، مثل تعدين الذهب التقليدي أو جمع النساء للأصداف في مناطق المانغروف . يتميز كل ممر من هذه الممرات بأنماط محددة من التنقل ، والعلاقات الاجتماعية (الجنس ، القرابة ، العرق) ، واستخدام البيئة ، والروابط مع ممرات أخرى ؛ وينطوي كل منها على استراتيجية استخدام وإدارة محددة للإقليم .

تُمثل المنطقة-الإقليم فئة من العلاقات بين الأعراق التي تُشير إلى بناء نماذج بديلة للحياة والمجتمع . وهي تستلزم محاولة تفسير التنوع البيولوجي من منظور داخلي للمنطق البيئي-الثقافي للمحيط الهادئ . وبصورة أكثر تحديدًا ، يُنظر إلى الإقليم على أنه مساحةٌ للاستيلاء الفعلي على النظام البيئي ، أي تلك المساحات المستخدمة لتلبية احتياجات المجتمع والتنمية الاجتماعية والثقافية ؛ إنه مساحةٌ متعددة الأبعاد لإنشاء وإعادة إنتاج الممارسات البيئية والاقتصادية والثقافية للمجتمعات .

وبالنسبة لمجتمع نهري معين ، فإن لهذا الاستيلاء أبعادًا طولية وعرضية ، تشمل أحيانًا عدة أحواض نهرية . وبهذا التعريف ، يمتد الإقليم عبر عدة وحدات من المظاهر الطبيعية ؛ والأهم من ذلك ، أنه يجسد مشروع حياة المجتمع . على النقيض من ذلك ، يُنظر إلى الإقليم-المنطقة على أنه بناء سياسي للدفاع عن الأراضي واستدامتها . وبهذه الطريقة ، **يُمثل الإقليم-المنطقة استراتيجيةً للاستدامة ، والعكس صحيح : فالاستدامة استراتيجيةٌ لبناء الإقليم-المنطقة والدفاع عنه** . وهكذا ، يمكن القول إن الإقليم / الأرض يُجسّدان مشروع حياة المجتمعات مع المشروع السياسي للحركة الاجتماعية . وبالتالي ، فإن النضال من أجل الإقليم هو نضال ثقافي من أجل الاستقلال وتقرير المصير. وهذا يُفسر لماذا يُمثّل فقدان الإقليم ، بالنسبة لكثير من سكان المحيط الهادئ ، عودةً إلى العبودية ، أو ربما الأسوأ من ذلك ، تحولهم إلى "مواطنين عاديين" .

يعد ناشطو الشبكة الوطنية للمناطق الحضرية قضية الإقليم تحديًا لتطوير اقتصادات محلية وأشكال حكم قادرة على دعم دفاعها الفعال . إن تعزيز وتحويل أنظمة الإنتاج التقليدية والأسواق والاقتصادات المحلية ؛ والحاجة إلى المضي قدمًا في عملية إصدار الملكية الجماعية ؛ والعمل على تعزيز التنظيم وتطويره... تُعدّ

أشكال الحكم الإقليمي كلها مكونات مهمة لاستراتيجية شاملة تُركّز على المنطقة . وأخيرًا ، من الواضح أن المجتمعات نفسها تشعر بشكل متزايد بفقدان أراضيها في الوقت الحالي وما قد يتطلبه الدفاع عنها . يميل سكان المجتمعات النهرية إلى الإشارة إلى "فقدان القيم والهوية التقليدية" كونه المصدر الأكثر إلحاحًا لفقدان الأراضي .

ويبدو أن عوامل أخرى تتفق على هذا المتغير؛ إذ يُشار إلى فقدان ممارسات الإنتاج التقليدية ، والاستغلال غير العقلاني للموارد ، وسياسات التنمية الحكومية الموجهة بمعايير خارجية بحتة ، وزيادة وتيرة الاستخراج الصناعي ، **ووجود نماذج تعليمية غير مناسبة تمامًا ومُنفّرة للشباب ، كونها أكثر العوامل شيوعًا المرتبطة بفقدان القيم والأراضي** . وفي مناقشات أكثر جوهرية مع قادة المجتمعات ونشطاء الحركات الاجتماعية ، بدأت تظهر سلسلة من العوامل الأخرى المرتبطة بفقدان الأراضي ، مثل : انتشار المزارع وتخصص الأنشطة الإنتاجية ؛ التغيرات في أنظمة الإنتاج ؛ والصراعات الداخلية في المجتمعات ؛ والتأثير الثقافي لوسائل الإعلام الوطنية والتعليم والثقافة ؛ والهجرة الخارجية ووصول أشخاص غرباء إلى المنطقة يتبنون أخلاقيات الرأسمالية والاستخراجية ؛ وبالطبع سياسات التنمية غير الملائمة ، والانفتاح النيوليبرالي على الأسواق العالمية ، ومتطلبات الاقتصاد العالمي .

باختصار، تُعارض الحركات الاجتماعية استراتيجيات إنتاج المحلية برأس المال (وبطرق مختلفة ، بالتكنولوجيا والعلوم) ، استراتيجيات التوطين التي ، كما رأينا ، تُركز في المقام الأول على الدفاع عن الإقليم والثقافة . ينسج نشطاء الحركة مصطلحات التنوع البيولوجي ، والاستدامة ، وأنظمة الإنتاج التقليدية ، والحقوق الثقافية ، والهويات العرقية في خطاب للدفاع عن المكان وإطار بيئي سياسي يُمكّنهم من صياغة استراتيجية سياسية .

وبالتالي ، يمكن النظر إلى الحركات الاجتماعية ، مثل حركة المجتمعات السوداء في المحيط الهادئ الكولومبي ، على أنها تُعزز استراتيجية ثلاثية الأبعاد للتوطين للدفاع عن أراضيها : استراتيجية توطين قائمة على المكان للدفاع عن النماذج المحلية للطبيعة والممارسات الثقافية ؛ واستراتيجية أخرى للتوطين من خلال المشاركة النشطة والإبداعية مع القوى العابرة للحدود ، مثل الحركات ذات الهوية المتشابهة أو الحركات البيئية أو التحالفات العالمية المختلفة ضد العولمة والتجارة الحرة ؛ استراتيجية سياسية متغيرة تربط الهوية والإقليم والثقافة على المستويات المحلية والإقليمية والوطنية والعابرة للحدود الوطنية .

المكان والاختلاف وسياسات الحجم

من الناحية النظرية ، من المهم أن نتعلم كيف ننظر إلى الممارسات الثقافية والبيئية والاقتصادية القائمة على المكان كمصادر مهمة لرؤى واستراتيجيات بديلة لإعادة بناء العوالم المحلية والإقليمية ، بغض النظر عن مدى تأثرها بالعالمية . اجتماعيًا ، من الضروري التفكير في الظروف التي قد تجعل الدفاع عن المكان - أو بتعبير أدق ، عن بناءات معينة للمكان وما قد يستلزمه ذلك من إعادة تنظيم - مشروعًا قابلًا للتحقيق . وكما ذكرت ، في استراتيجيتها الثلاثية للتوطين ، تنخرط بعض الحركات الاجتماعية في الغابات المطيرة فيما يسميه الجغرافيون "سياسات الحجم" ؛ ينتقلون من نطاق إلى آخر في تعبئتهم السياسية . وتحدث النتائج على نطاقات مختلفة ، من الأقاليم المحلية إلى بناء عوالم اجتماعية طبيعية إقليمية ، مثل المحيط الهادئ كـ"إقليم-إقليم للجماعات العرقية" . ويمكن بهذه الطريقة فتح مجالات عامة بيئية بديلة في مواجهة البيئات الإمبريالية للطبيعة وهوية الحداثة الرأسمالية .

صحيح أن رأس المال والعولمة يحققان تأثيرات توسعية هائلة . فهما يسيطران على الأماكن من خلال السيطرة على الفضاء . وكما يشير الجغرافيون ، فإننا نشهد إعادة توسع جغرافي مهمة من قبل رأس المال ،

تنقل السلطة في المقام الأول إلى المستوى العالمي وأشكال الحوكمة العالمية (على سبيل المثال ، اتفاقية التجارة الحرة لأميركا الشمالية ، والاتحاد الأوروبي ، والاتفاقية العامة للتجارة والتعريفات الجمركية ، ومنظمة التجارة العالمية) . وفي معظم الأحيان ، تكون هذه المناورات غير ديمقراطية ومُضعفة ؛ فهي تغذيها خطابات التجارة الحرة والتنمية والعمل غير المقيد للأسواق . ومع ذلك ، غالبًا ما تُنشئ الحركات الاجتماعية والمنظمات غير الحكومية التقدمية شبكات تُحقق تأثيرات تتجاوز حدود المكان ، وهي تأثيرات لا يستهان بها .

وشبكات الشعوب الأصلية المختلفة في الأمريكتين معروفة جيدًا في هذا الصدد ، ولكن هناك شبكات عابرة للحدود الوطنية ناشئة حول مجموعة من القضايا في جميع أنحاء العالم . وتُعدّ المظاهرات المناهضة لمنظمة التجارة العالمية في سياتل في نوفمبر 1999 مثالًا واضحًا على ذلك . فقد كانت في الواقع نتيجة شبكات منظمات صاعدة منذ الاحتجاجات المناهضة لاتفاقية الجات في الهند على الأقل في أوائل التسعينيات . تُسهم هذه الشبكات في إعادة تنظيم الفضاء من الأسفل ، وتحقيق قدر من التناسق بين المحلي والعالمي . ويمكن عدها بمثابة خلق "محليات عالمية" ، أي تكوينات ثقافية ومكانية تربط الأماكن ببعضها البعض لخلق مساحات إقليمية وعوالم إقليمية . **وتعني "المحلية العالمية" أن كل شيء محلي وعالمي**، بالتأكيد ، ولكن ليس عالميًا ومحليًا بنفس الطريقة . بعبارة أخرى ، ليس رأس المال وحده هو الذي يُعيد تنظيم الفضاء من خلال الشبكات ، بل والصراعات المكانية أيضًا ، وذلك وفقًا لمعايير واهتمامات مختلفة .

وهذا يُشير أيضًا إلى أن سياسات المكان يجب أن تُوجد عند تقاطع التأثيرات المتنامية للشبكات ، من جهة ، والهويات الناشئة ، مثل هويات السود والسكان الأصليين في منطقة المحيط الهادئ الكولومبية ، من جهة أخرى . فالحركات الاجتماعية والمجتمعات المحلية ليست حبيسة الأماكن فحسب ، تنتظر يد رأس المال أو التكنولوجيا أو التنمية المُحررة للانضمام إلى شبكات التدفقات العابرة للحدود الوطنية للسلع والصور وما شابهها . عند بناء شبكاتها وعولمياتها المحلية الخاصة ، حتى وإن كان ذلك بالطبع من خلال تفاعلها مع الشبكات المهيمنة ، قد تُسهم الحركات الاجتماعية في دمقرطة العلاقات الاجتماعية ، ومعارضة رؤى الطبيعة (كما هو الحال في مناقشات التنوع البيولوجي) ، وتحدي الضجيج التكنولوجي- العلمي الحالي (وفي حالة الزراعة المعدلة وراثيًا والكائنات المعدلة وراثيًا) ، بل وحتى اقتراح إمكانية تنظيم الاقتصادات بشكل مختلف عن العقائد النيوليبرالية الحالية (كما هو الحال في عودة اقتصادات المقايضة والعملات المحلية واستمرار بقاء الممارسات غير الرأسمالية) .

تُشير الحركات الاجتماعية إلى أن "شكل المكان" يجب أن يُتناول ليس فقط من منظور مكانية رأس المال ، ولكن من جانب إنتاج المكان من خلال الشبكات القائمة على المكان . ومن الضروري أيضًا أن يُدرك الباحثون كلاً من الإنتاج الاجتماعي والبناء الثقافي للمكان ؛ لتوسيع نطاق الشبكات آثار ثقافية غالبًا ما تُغفل في مفاهيم الفضاء والشبكات ، بما في ذلك تلك التي كانت الأكثر تنويرًا وتأثيرًا . يُعزز الاستخدام الإبداعي لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات (NICT) بشكل كبير اليوم سياسات الاختلاف القائمة على الممارسات والشبكات المكانية . وقد ثبت أن المعلومات والتشبيك لهما أهمية حيوية في الاستراتيجيات السياسية لعدد من الثقافات . حركات حقوق الإنسان ، بما في ذلك حركة الزاباتيستا والمايا الثقافية ، والحركات النسائية ، وغيرها من الحركات العرقية والبيئية والسكان الأصليين .

قد يبدو من المفارقات للوهلة الأولى استخدام شبكات المعلومات والاتصالات غير التقليدية ، المعروفة بتأثيراتها اللامركزية في خدمة رأس المال ووسائل الإعلام العالمية ، للدفاع عن الممارسات المكانية . لكن الحقيقة هي أن الأشخاص المتجذرين في الثقافات المحلية يجدون سبلًا ليكون لهم مصلحة في المجتمع الوطني والعالمي ، تحديدًا عندما يتفاعلون مع ظروف العولمة دفاعًا عن الثقافات والبيئات المحلية . ويرجع ذلك إلى أن هذه الشبكات تُمثل موقعًا للجهات الفاعلة المحلية الناشئة ومصدرًا للممارسات والإمكانات الثقافية الواعدة

. وهي أكثر فعالية عندما تعتمد على تفاعل مستمر بين السياسة السيبرانية وسياسة المكان - أي بين النشاط السياسي على الإنترنت وغيرها من المساحات الشبكية والنشاط في الموقع المادي الذي يجلس فيه المشاركون في الشبكة ويعيشون . نظراً لارتباطهم التاريخي بالأماكن والاختلاف الثقافي والبيئي الذي تُجسّده ، تُعدّ النساء والمدافعون عن البيئة والحركات الاجتماعية العرقية في بعض أنحاء العالم مُؤهّلين بشكل خاص لهذه المهمة المتمثلة في نسج الافتراضي والواقعي ، والثقافة ، والنوع الاجتماعي ، والبيئة ، والتنمية في ممارسة ثقافية-سياسية مُبتكرة .

باختصار، تجد الحركات الاجتماعية والعديد من المنظمات غير الحكومية التقدمية والباحثون ضرورةً مُتزايدة للدفاع عن المكان والممارسات القائمة عليه في مواجهة الانهيار الاقتصادي والثقافي الذي شهدته العقود الأخيرة . في أغلب الأحيان ، لا يتخذ هذا المشروع شكل دفاع مُتعنّت عن "التقاليد" ، بل شكل تفاعل إبداعي مع الحداثة والعولمة ، مدعوماً في كثير من الأحيان بتقنيات المعلومات والاتصالات الحديثة . لا يسعى هؤلاء الفاعلون الاجتماعيون إلى الاندماج في مجتمع الشبكة العالمية بقدر ما يسعون إلى إعادة تشكيله بطريقة تُمكّن رؤاهم للعالم من إيجاد الحد الأدنى من شروط وجودهم .

ورغم التوترات والصراعات ، فإنهم يُنشئون شبكات ومحليات عالمية ذات طابع تعددي أكثر وضوحًا : محليات عالمية يمكن أن تتعايش فيها العديد من السياسات الثقافية والثقافات السياسية ، مما يُضفي معنى جديدًا على الديمقراطية . قد تتمكن المحليات العالمية الشعبية من إنشاء هياكل سلطة لا تفرض مفاهيم متجانسة للخير على جميع المشاركين فيها . وهنا قد نجد أملًا جديدًا في تعددية معقولة . إن حقيقة أن تنامي... لم يعد من الممكن إنكار مطالبة عدد كبير من الأفراد والجماعات بحقهم في ثقافاتهم وبيئاتهم واقتصاداتهم كجزء من عالمنا الاجتماعي الحديث ، كما لم يعد من الممكن استيعاب هذه المطالب بسهولة في أي عقيدة ليبرالية عالمية أو نيوليبرالية .

لم يعد الأمر، كما يروج له دعاة العولمة الليبرالية الجديدة ، أن المرء لا يستطيع إلا معارضة السلب والمطالبة بالمساواة من منظور الاندماج في الثقافة والاقتصاد السائدين. في الواقع ، أصبح العكس هو الصحيح : أصبح موقف الاختلاف والاستقلالية صالحًا ، إن لم يكن أكثر، لهذا الطعن . لم تعد مناشدات الحس الأخلاقي للأقوياء فعّالة ، إن كانت فعّالة أصلًا . لقد حان الوقت لتجربة استراتيجيات أخرى ، مثل استراتيجيات القوة للمجموعات المرتبطة في شبكات ، من أجل التفاوض على مفاهيم متباينة لخير وقيمة أشكال الحياة المختلفة ، وإعادة صياغة المأزق القديم المتمثل في الاختلاف في المساواة . لقد حان الوقت للتفكير بانفتاح أكبر في الآثار العلاجية المحتملة للاختلاف المُثري سياسيًا .

الخلاصة

قد يبدو من المفارقة التأكيد على أن الهويات التي يمكن أن تظهر في المجال الثقافي البيئي اليوم قد تكون مرتبطة بالمكان ، وأكثر انفتاحًا على ما لا يزال غير مُتصوَّر وغير مُفكَّر فيه من الناحية البيولوجية والثقافية والاقتصادية . تنخرط هذه الهويات في أنواع أكثر تعقيدًا من الاختلاط والجدلية مما كانت عليه في الماضي القريب . تشير ديناميكية المكان والشبكات والقوة المؤثرة اليوم في العديد من المجالات إلى أن هذا هو الحال . ما تزال استراتيجيات التوطين التابعة بحاجة إلى النظر إليها من منظور المكان ؛ الأماكن متصلة ومُشَيَّدة بلا شك ، إلا أن هذه الإنشاءات تستلزم حدودًا ، وأسسًا ، وارتباطًا انتقائيًا ، وتفاعلًا ، وتموضعًا ، وفي بعض الحالات تجديدًا لمهارات صنع التاريخ .

التواصل والتفاعلية والتموضع هي السمات المترابطة للتعلق بالمكان ، وهي مستمدة إلى حد كبير من أساليب عمل الشبكات التي أصبحت محورية لاستراتيجيات التوطين التي تروج لها الحركات الاجتماعية

(وبالطبع ، رأس المال بطرق مختلفة) . يمكن عد الشبكات أدوات لإنتاج خطابات وممارسات تربط العقد في فضاء متقطع ؛ ليست بالضرورة هرمية ، ولكن يمكن وصفها في بعض الحالات بأنها شبكات ذاتية التنظيم ، غير خطية ، وغير هرمية ، كما يعتقد بعض منظري التعقيد حاليًا . فهي تُنشئ تدفقات تربط المواقع ، والتي تعمل كهياكل كسورية أكثر منها هياكل ثابتة ، مما يُتيح اقترانات متنوعة (هيكلية ، استراتيجية ، ظرفية) مع مواقع وشبكات أخرى .

لهذا السبب أقول إن معنى سياسات المكان يكمن في تقاطع تأثيرات التوسع للشبكات واستراتيجيات الهويات الناشئة... قيل إن أفكار وممارسات الحداثة تُستَوْجَز وتُرَسَّخ في ممارسات محلية ، مما يُؤدِّي إلى نشوء طيف واسع من الحداثات من خلال تجميع عناصر ثقافية متنوعة ، وأن هذه العملية غالبًا ما تُفضي إلى اتجاهات معاكسة وتطور مضاد ، يُعرَّف بأنه "العملية التي تُؤسِّس من خلالها حداثات متعددة" . يكمن التحدي الذي يواجه هذا الاقتراح البنّاء في تخيُّل حداثات متعددة من اتجاهات متعددة ، أي من أنساب متعددة لممارسات قائمة على المكان (وإن لم تكن مرتبطة به بوضوح).

وهنا تبرز أهمية "لحظة ما بعد التطور" ، على الأقل في بعض التفسيرات الحديثة للمفهوم... وقد يكون التحرك نحو الدفاع عن المكان عنصرًا في هذه الاستراتيجية . وهذا الدفاع ليس المصدر الوحيد للأمل والتغيير، بل هو بُعدٌ مهمٌّ منهما . إن نقد تفضيل المكان على المكان ، والرأسمالية على اللارأسمالية ، والثقافات والطبائع العالمية على المحلية ، ليس نقدًا لفهمنا للعالم فحسب ، بل للنظريات الاجتماعية التي نعتمد عليها لاستخلاص هذا الفهم . ويشير هذا النقد أيضًا إلى تهميش الإنتاج الفكري في سياق العولمة المُنتج في "أطراف" العالم .

وأخيرًا ، يُمثل هذا النقد محاولةً لمواءمة النظرية الاجتماعية مع رؤى العالم والاستراتيجيات السياسية لمن يقفون إلى جانب المكان واللارأسمالية والمعرفة المحلية - وهو جهدٌ يلتزم به عادةً علماء الأنثروبولوجيا وعلماء البيئة . فالهيمنة والتبعية... ظاهرتان اجتماعيتان ومعرفيتان مُعقدتان . يمكن القول إن الأطر التي تتجاهل التجربة التاريخية للتابعين ، والتي تُسهم في محو استراتيجياتهم المحلية ، تُسهم أيضًا في نثر مكافحة التمرد . على العكس من ذلك ، إذا صحّ أن أشكال الاختلاف المُثرية سياسيًا ما تزال قيد الإنشاء ، فهناك أمل في أن تُشكّل أسسًا جديدة للوجود ، وإعادة صياغة جوهرية للذاتية والتغيير في أبعادها الاقتصادية والثقافية والبيئية .

وأخيرًا، يُمكن للأنثروبولوجيا والجغرافيا السياسية والبيئة السياسية أن تُسهم في إعادة صياغة نقد الهيمنة الحالية كسؤال عن الخيال الطوباوي : **هل يُمكن إعادة تصور العالم وإعادة بنائه من منظور تعدد الممارسات المكانية للثقافة والطبيعة والاقتصاد** ؟ ما هي أشكال "العالمي" التي يُمكن تخيّلها من منظورات مكانية متعددة ؟ ما هي البنى المضادة التي يمكن وضعها لجعلها قابلة للتطبيق ومنتجة ؟ ما هي مفاهيم السياسة والديمقراطية والاقتصاد اللازمة لإطلاق العنان لفعالية المحلي بكل تعدده وتناقضاته ؟ ما هو الدور الذي ستلعبه مختلف الجهات الفاعلة الاجتماعية - بما في ذلك التقنيات القديمة والحديثة - من أجل إنشاء الشبكات التي يمكن أن تعتمد عليها أشكال المحلي المتعددة في مواجهتها مع المظاهر المتعددة للعالمية ؟ **يجب أن تُؤخذ بعض هذه الأسئلة في الحسبان بجدية في جهودنا لبلورة تصورات بدائل للنظام الحالي .**